تراجم النساء لابن عساكر

بقلم : لطفية الشهابي — تحقيق : سكينة الشهابي

فطر الانسان على حب المعرفة لماضي الأمور وحاضرها ، جامدها ومتحركها ، وماديها ومعنويها • وقد شغفته أحوال العظماء والمشاهير وأخبارهم ، فحفظت هذه الأخبار وتنوقلت ، قبل أن يعرف الناس الكتابة، ثم دونت وقرئت ، بعد ذلك، ثم طبعت وعمت بينهم •

والعرب اهتموا اهتماماً كبيراً بأمر تراجم العظماء • فبدأ المسلمون أول ما بدؤوا بكتابة حياة الرسول ﷺ ، قبل البعثة وبعدها ، ثم أخذوا يكتبون تراجم العظماء والنبلاء والعلماء والمبرزين في كتب مختلفة متنوعة •

وحين غدت بغداد سرة الدنيا ، وعاصمة الحضارة زمن العباسيين كتب الخطيب البغدادي تاريخ بغداد • ثم جاد الدهر على دمشق بولد بار وعالم ذكي ، وكاتب مبدع ، فلم يشأ هذا العالم أن تكون دمشق أقل من بغداد في هذا المضمار ، وهي من أقدم مدن الأرض وأرسخها حضارة ، فعزم على كتابة تاريخه ، تاريخ دمشق ، وهو الذي عرف بعد ذلك بتاريخ ابن عساكر ، نسبة الى مؤلفه ؛ ترجم فيه لكل من دخل دمشق أو مر بها من المشاهير •

ورأى أن يفرد جزءاً خاصاً من كتابه هذا للنساء ، فكان ذلك الجزء هو (تراجم النساء) الذي اختارته محققته (سكينة الشهابي) من بين الأجزاء الكثيرة الموضوعة قيد التحقيق في مجمع اللغة العربية في دمشق ، وقدمته على غيره ، رغم أنه متأخر في ترتيب الكتاب • وأخرجته للناس مطبوعاً يستمتعون بمحتوياته المتنوعة ، ولا سيما بالتعرف على أولئك النسوة اللواتي حفظ الدهر مآثرهن وأخبارهن •

ونحن حين نجد كتاباً في اهابه الأخير مطبوعاً بين أيدينا سهل المتناول ، يصعب علينا أن نقدر الجهود التي بذلت لأجله والساعات الطويلة التي عاشها معه صاحبه أولا ثم محققه

ثانياً ، حين يكون الكتاب قديماً مخطوطاً • ولكن لنستطيع تقدير ذلك يكفي أن نذكر كم من الوقت نمضي نحن في قراءته فقط ، بعدأن أصبح جاهزاً شهياً معداً للقراءة •

وهكذا وصلتني نسخة الكتاب منذ أشهر، وكنت أنظر اليها بين الحين والحين ؛ تارة أقرأ المقدمة ، وتارة أقرأ بعض الصفحاتالمتفرقة ، ولكن مثل هذه القراءات لا تشفي غليلا ، ولا تروي ظمأ ، الى أن شاء القدر ،وانصرفت اليه كلياً ، فكان سلوتي وسميري حين أخلو الى نفسي ، حتى أنجزت قراءته •

عدت أثناء ذلك الى المقدمة من جديدلأجد أن المحققة قد عرضت فيها أولا الظروف التي جمعتها بهذا الجزء من الكتاب ، ودفعتهاالى تحقيقه • ثم أوردت ترجمة للمؤلف تحدثت فيها عن مولده ونشأته وبيئتهوشخصيته حديثاً واضحاً بيناً مشوقاً ، يوحي بالمعاشرة الطويلة لهذا العالم من خلال صحبتهالكتابه (تاريخ دمشق) طوال عقد ونيف من السنين •

وقد ضمنت المقدمة مخططاً جغرافياًهاماً ، وضحت فيه المدن التي زارها ابن عساكر في رحلاته ، وقرنت تلك الرحلات بتواريخها معتمدة على المراجع الكثيرةالمتحدثة عن ابن عساكر وحياته وتنقلاته • وقد جعلتنانعيش مع المؤلف مراحل عمره الى أن أدركه المشيب ، فأخذ ينشد :

أيا نفس ويحك جاء المشيب فماذا التصابي وماذا الغزل(١)
تولى شبابي كأن لم يكن وجاء المشيب كأن لم يزل
كأني بنفسي على غرة وخطب المنون بها قد نزل
فيا ليت شعري ممن أكون وما قدر الله لي بالأزل

انها تجربة واقعية يعرضها علينا انسانليس كسائر الناس ، وانما هو مثال الانسان العامل لعلمه ، المجاهد لأجله ، وهو مع ذلككما قالت المحققة نراه (خائفاً وجلا ، فقد قربت ساعة الرحيل(٢) ، ولا يدري ما قدر اللهله في الأزل • ولا نظن الا أن الله قدر له خير الآخرة بعد أن عمل لخير الناس في دنياه • فالناس كلهم عيال الله ، وأحبهم الى الله أنفعهم لعياله ، وأي نفع أكبر من هذا العلم الذيتركه لنا خيراً مستمراً مع الأجيال ، بعد أن خصص له جل حياته ونشاطه ووقته •

ثم تنتقل في المقدمة الى الحديث عن مؤلفات ابن عساكر ، بادئة بتاريخ دمشق ومتبعة ذلك ببقية مؤلفاته مرتبة على حروف المعجم • وتنتقل بعدها الى حديث عن منهجيته في عرض أخبار النساء ، فتقول :(٣) (يترجمابن عساكر في تاريخه الشهيرات من الدمشقيات ، ومن اللواتي وردن دمشق أواجتزن بنواحيها ، وتمتد هذه النواحي حتى تشمل مساحة كبيرة حول مدينة دمشق) ثمتعرفنا بطريقته في الترجمة ونقل الأخبار من وجوهها المختلفة ، مما يسبب طول الترجمةفي بعض الأحيان نتيجة لتعدد طرق الخبر الواحد فيها • وتشير الى المصادر التي استقىمنها المؤلف أخباره ، وتصف لنا الأصول التي

اعتمدتها في التحقيق ، والخطة التي سلكتهـا لأجل ذلك · ثم تعرض نموذجات مصـورة من الأصول المخطوطة ؛ كل ذلك في ستين صفحـة ونيف لتنتقل بعدها الى الكتاب المحقق بحـد ذاته ، وبأرقام جديدة لصفحاته منفصلة عن أرقام صفحات المقدمة ·

وتقع المجلدة في تسعين وخمسمئة صفحة من القطع الكبير ، عدا المقدمة والفهـارس · وقد طبع السند بحرف صغير والمتن بحـرف أكبر، وكان ذلك من حسن الصنيع، في نظري، ليتميز النصـان أولا ، وليستغني القـارىء العجل عن قراءة السند ان شاء وينصرف الى المتـن ·

ثم أتبع الكتاب بفهـارس واسعة استغرقت ثمانياً وثمانين صفحة تقـريباً · منهـا الفهارس العامة، ثم فهارس التراجم والشيوخ والآيـات القرآنيـة والأحـاديث الشـريفـة والخطب والأمثال والشعر ··· الخ

وحين نباشر بقراءة الكتاب نجد هذه الترجمات الواردة فيه متفاوتة في الطول ، حسب أهمية صاحبتها من جهة ، وكثـرة الأخبـار المروية عنها بوجوهها المختلفة من جهة أخرى· فهناك ترجمات تزيد على عشرات الصفحات كترجمة(٤) أسـماء بنت أبي بكر التي بلغت حوالي ثلاثين صفحة ·(٥) ومريم بنت عمران التي تجاوزت ترجمتها الأربعين صفحة ، بينما هنالك ترجمات لا تزيد على السطر أو بضعة الأسـطر ·

والترجمة عنده لا تأتي لشهرة تاريخية فقط ، وانما ربما أتت لشهرة فنية · وقـد ترافقها قصة غرام طريفة كما في ترجمة(٦) سلامة جارية يزيد · هذه الجارية التي أحبها الأحوص حين كان يجالسها مع عبد الرحمن بن حسان في المدينة ويناشدانها الشعر · فأحس عبد الرحمن أنها تحب الأحوص كذلك وتعرض عنه هو ، فأوصل خبر هذه الجارية وفنها الى يزيد بن معاويـة وكان يزيـد يحب الشـعر والغناء ، فاشتراها يزيد · ثم توصل الأحوص الى يزيد مادحاً ، واحتال في اللقاء بسلامة ،وعلم يزيد بذلك اللقاء ، فلم يمنعـه وانمـا ساعد على اتمامه خفية ، وجلس بحيث يسمع ما يجري دون أن يراه المجتمعان فكان بـين الأحوص وسلامة حوار شعري جميل قال فيه الأحوص :

أمسى فـؤادي في هـم وبلبـال من حب من لم أزل منه على بال(٧)

فقالت :

صحا المحبون بعد النأي اذ يئسوا وقد يئست وما أصحو على حـال

فقـال :

من كان يسلو بيأس عن أخي ثقة فعنك سـلام مـا أمسيت بالسالي

فقالت :

والله والله لا أنسـاك يا شـجني حتى تفارق مني الروح أوصـالي

فقـال :

والله ما خـاب من أمسى وأنت له يا قـرة العـين في أهل ولا مال ·

وحين سمع يزيد هذه المحاورة استدعاهما ، وعرف صدق حبهما فوهبها للأحوص . وقد نقل ابن عساكر هذا الخبر عن الأغاني. ونحن نلاحظ أن سبب الترجمة هنا هو شهرة سلامة بالغناء والشعر قبل كل شيء . فهذه الشهرة الفنية هي التي دفعته الى ترتيبها بين الشهيرات . وذلك يوحي لنا بما كان للفن من قدر عند أجدادنا ، فاحتفظوا باخبار مثيلات سلامة جارية يزيد. ثم سلامة القس(٨) ، وهي كذلك مغنية مبدعة وشاعرة مجيدة. ولنسمعها ترثي يزيد بن عبد الملك :

لا تلمنا ان خشعنا ... أو هممنا بخشوع(٩)
قد لعمري بت ليلي ... كأخي الداء الوجيع
للذي حل بنا اليوم ... من الأمر الفظيع
كلما أبصرت ربعاً خالياً ... فاضت دموعي

ومثل تينك المغنيتين تأتي شهدة(١٠)جارية الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، فقد ترجم لها لأنها كانت مغنية ، وتعلّم الغناء .

وهناك نساء ترجم لهن بسبب شهرتهن بالجمال . مثل عائشة بنت طلحة(١١) وفاطمة بنت الحسين . فبنت طلحة اضافة الى أنها حدثت عن عائشة أم المؤمنين ، وكانت أديبة ، فقد عرفت بجمالها ، وكذلك فاطمة بنت الحسين . ومثلهما في الجمال(١٣) (عريب المأمونية) ، فقد نقل في ترجمته لها خبر أيقول : « ما رأيت امرأة قط ، أحسن وجهاً وأدباً وغناء وضرباً وشعراً ولعباً بالشطرنج والنرد من عريب . وما تشاء أن تجد خصلة حسنة ظريفة بارعة في امرأة الا وجدتها فيها». ومن شعرها في المتوكل وكانت تعتاده الحمى :

أتوني وقالوا بالخليفة علة ... فقلت ونار الشوق توقد في صدري(١٤)
ألا ليت بي حمى الخليفة جعفر ... فكانت لي الحمى وكان له أجري
كفى حزناً أن قيل حم فلم أمت ... من الحزن اني بعد هذا لذو صبر
جعلت فداء للخليفة جعفر ... وذاك قليل للخليفة من شكر

ومما قالته لما عوفي الخليفة :

حمدنا الذي عافى الخليفة جعفراً ... على رغم أشياخ الضلالة والكفر(١٥)
سلامته للدين عز وقوة ... وعلته للدين قاصمة الظهر
مرضت فأمرضت البرية كلها ... وأظلمت الأبصار من شدة الذعر
سلامة دنيانا سلامة جعفر ... فدام معافى سالماً آخر الدهر
امام يعم الناس بالعدل والتقى ... قريباً من التقوى بعيداً من الوزر

كما يذكر المؤلف عدة أماديح لعريب في الخليفة المستعين(١٦) .

وقد ترجم ابن عساكر للزاهدات المتعبدات ، كأم الدرداء(١٧) ، كما ترجم لامرأة اشتهرت بالوفاء لزوجها كهند الفزارية(١٨) ؛فهي بالاضافة الى جمالها وأدبها وعقلها ، كانت من أشد النساء وفاء لزوجها في حياتهوبعد مماته • وربما يترجم لامرأة راوية للحديث فينقل عنها حديثاً واحداً ، كأم محمدبن سليمان بن أبي الدرداء(١٩) •

وقد أفرد المؤلف قسماً من كتابه لمن عرفن بالكنى من النساء ، ثم لبعض النساء المشهورات القريبات نسباً من المشاهير ، مثلأخت رابعة(٢٠) ، ولم يذكر اسمها ، وجدة عبد السلام بن مكلبة(٢١) ، وأيضاً لم يذكراسمها ، لأن مثل هذه الأسماء غير معروفة فيما يبدو • ومثل أولئك امرأة من بني مرة(٢٢)روى عنها بعض الحديث، وامرأة ذكوانية(٢٣) اكتسبت شهرتها بفصاحتها وحسن منطقها ،ينقل عنها قولا قالته بين يدي معاوية تعرض فيه ظلامتها ضد واليه زياد بن أبيه ، وتستميدحقها بقوة عارضتها وفصاحة مقولها •

والقارىء المتمعن في هذا الكتاب يجدلذة أيما لذة ، لأنه ينقله من خبر الى شعر ، الى حديث عن الحب ثم آخر عن الزهد ، وثالث عن الفصاحة واللسن • وكم تلفتنا أخبار عمر بن عبد العزيز ، التي توزعت في ثنايا الكتاب خلال ترجمة أو أخرى لبعض من لهن صلة به أو قرابة • وتستحق مثل هذه الأخباروغيرها ، أن تفرد لها أبحاث خاصة ، يجد لها كاتبها ، من محتويات هذا الكتاب موردأعذباً ومعيناً لا ينضب •

وقد عرفت بعد انهائي لقراءته سر الانصراف الكامل الذي أراه من محققته الىكتاب ابن عساكر برمته • فقد عايشته أكثر من عشر سنوات وانها لا تمل مرافقته ، فلا تكاد تجتمع بأحد ، الا ونحس كأن وراءها مسؤوليةمسيسة الحاجة تدفعها الى اختصار اللقاء ، وايجاز الحديث ، ذلك لأنها علقت حديثاً أكثرجاذبية ، وحباً أكثر جدوى مما نحب نحن من حديث وتسلية ولقاءات • فتعود الى بيتهاوالى عملها • وهكذا فهي لم تكتف بمرافقة هذا الكتاب في اطار شغلها الوظيفيفي المجمع حتى نقلته الى جلساتها الخاصة ، وسهراتها التي لا تجتمع فيها الى أحد غيره ،وما يلزم أنيرافقه من كتب ومراجعومصادر، أصبحت على معرفة كاملة بكل ما له صلة منهابشؤونه وخباياه، في متونه وأسانيده • وهكذا حتى أخرجت لنا من خلال سهراتها وساعاتاستراحتها في البيت هذه المجلدة • ولا أظن أحداً عايش مؤلفاً من المؤلفات القديمة فيعصرنا هذا معايشة أكثر اخلاصاً وصدقاً في العمل وأطول مرافقة مما عايشت به سكينةالشهابي كتاب ابن عساكر •

فنشكر الله على أن وفقها لهذه الصحبة ،وعلى أن وفق هذا الكتاب بمن تبذل له كل تلك العناية ، وتصرف من أجله مثل ذلكالجهد • ونتمنى أن نرى بين أيدينا مزيداً من هذه الأجزاء نتثقف بمحتوياتها ونغتني بخيراتها •

والآن وبعد كل ما سبق ، فان هنالكملاحظات ومآخذ جزئية لا بد أن أشير اليها على سبيل التمثيل لا الحصر •

أثناء الحديث عن عريب المأمونية مر هذاالبيت :

كفى حزناً أن قيل حم فلم أمت من الحزن اني بعد هذا لذو صبر(٢٤)

وواضح أن كلمة (ذو) جاءت هنا خبرألان، وهي عائدة على الشاعرة عريب المتكلمة، ولكنها أتت بصيغة المذكر • ولم نلمح أي اشارة في الكتاب اليها من قبل المحققة • ويكاد هذا البيت يدفعني الى نوع من الشك بصحة نسبة أبيات القصيدة الى عريب ، فقد يكون شاعر آخر مغمور ليس ذا مكانة قالها وغنتها عريب ، فنسبت اليها ، ان لم نقل انتحلتها • ولكن هل ينطلي ذلك على أمثال ابن عساكر ومن سبقه من العلماء والرواة ؟ لا ندري وانما نفترض فقط •

وفي ترجمة سلامة القس نصادف هذا البيت ترثي به سلامة يزيد بن عبد الملك فتقول :

ثم بات الهم مني دون من لي بضجيعِ(٢٥)

والمعنى المراد من البيت في رأيي هو أن الهم بات ضجيعها بعد وفاة يزيد بدل من كانت تضاجع • ولكن تلفت نظرنا زيادة الباء في خبر بات • ونحن نعلم أن مواطن زيادتها في خبر الأفعال الناقصة تأتي عادة مع (ليس وما العاملة عمل ليس وكان المنفية) ولم نقرأ زيادتها في خبر بات •

وفي ترجمة عفراء(٢٦) صاحبة عروة نجد في أبيات قالتها عفراء هذا البيت :

ولا لبس الضيفانُ بعدك لابسٌ ولا حممَتْ بعد الحبيب حمامُ

وجاء في الحاشية (في الحدائق : جمام) ولم تزد المحققة على ذلك شيئاً والبيت حسب اعتقادي غامض بهذا الشكل • الا أن تكون الضيفان تصحيفاً لكلمة الطيقان (ج طاق وهو لباس الرأس) وتكون منصوبة وكلمة (حممت) بالحاء المهملة مصحفة عن (جممت) بالجيم من الجمة وهي مجتمع شعر الرأس ويصبح البيت :

ولا لبس الطيقانَ بعدك لابسٌ ولا جُممت بعد الحبيب جمام

وبذا يغدو البيت دعاء بأن لا يلبس هذا النوع من لباس الرأس بعد عروة انسان ، لأنه لن يكون جميلا على أحد بمثل ما كان جميلا على عروة وبأن لا ترى بعده شعراً جميلا في رأس أحد لأنه لا يوجد أجمل من شعر عروة • وهذا كله مجرد ظن وتخمين •

ذلك اضافة الى أن البيت كذلك فيه اقواء ؛ فروي القصيدة ميم مكسورة ، وهذا البيت رويّه ميم مضمومة •

وفي ترجمة سكينة بنت الحسين(٢٧) يرد هذا البيت لجرير :

يا أم ناجية السلام عليكم قبل الرحيل وقبل لوم العذل(٢٨)

وقد وردت كلمة العذل بالزاي أخت الراء ، ولا ندري ان كان ذلك خطأ مطبعياً ، أو أنه تصحيف لم تشر اليه •

وبصورة عامة فان هـذا الكتاب كـان يحتاج الى مزيد من التعليق والوقفات ، عند أشعاره وأحاديثه وبعض مفرداته ، وان كان ابن عساكر قد تولى شرح شيء منهـا الا آن ذلك وحده لا يفي بالحاجة ٠

وقد أشارت المحققة الى تقصيرها هـذا فيما يخص الأشعار والأحاديث وأموراً أخرى في نهاية المقدمة ، واعتذرت عن ذلك ، بأنهـا أخذت بشيء من السرعة ، والظروف الخاصة، فعسى أن تتفادى في طبعة قادمة ، قدر طاقتها، مثل هذا التقصير ٠ وذلك اضافة الى سعيهـا لسد الثغرة الموجودة في تراجم هذا الجـزء ، بسـبب الخـرم الـذي أصـاب ما لديهـا من مخطوطات ، وذلك باستعانتها بمخطوطـات أخرى ومراجع ترفو بها هذا الرتـق ، الذي جعل الكتاب ينتقل مباشرة من حرف الباء الى حرف الراء ، من غير أن يسـتوفي الأحـرف الستة الفاصلة بين هذين الحرفين ٠

فالله نسأل أن يأخذ بيد جميع العاملـين لخير هذه الأمة والساعين الى ايصال تراثنـا العربي القديم الضخـم الى أيـدي القـراء ليستفيدوا منه ويفيـدوا ٠ والله مـن وراء القصد ، وهو يهدي الى سواء السبيل ٠

لطفية الشهابي

★ ★ ★

☐ الحواشي :

١ ـ ص ١٦ من المقدمة ٠
٢ ـ ص ١٦ ـ ١٧ من المقدمة ٠
٣ ـ ص ٢٧ من المقدمة ٠
٤ ـ ص ٣ ـ ٣٠ من الكتاب ٠
٥ ـ ص ٣٤٣ ـ ٣٨٦ ٠
٦ ـ ص ١٨٣ ٠
٧ ـ ص ١٨٥ ٠
٨ ـ ص ١٨٧ ٠
٩ ـ ص ١٩٣ ٠
١٠ـ ص ١٩٩ ٠
١١ـ ص ٢٠٧ ٠
١٢ـ ص ٢٧٢ ٠
١٣ـ ص ٢٢٩ ٠
١٤ـ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ٠
١٥ـ ص ٢٣٤ ٠
١٦ـ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ٠
١٧ـ ص ٥١٧ ٠
١٨ـ ص ٤٣٦ ٠
١٩ـ ص ٥٦٣ ٠
٢٠ـ ص ٥٦٧ ٠
٢١ـ ص ٥٦٧ ٠
٢٢ـ ص ٥٦٩ ٠
٢٣ـ ص ٥٧٠ ٠
٢٤ـ ص ٢٣٤ ٠
٢٥ـ ص ١٩٣ ٠
٢٦ـ ص ٢٥١ ٠
٢٧ـ ص ١٥٥ ٠
٢٨ـ ص ١٦١ ٠